

أولو الألباب وقراءة كتاب الكون



مَن هُم أولو الألباب؟

يُراد من التعبير القرآني (أُولُوا الْأَبَابِ) أَنَّ الْعَقْلَ يُمَثِّلُ خِلاَصَةَ الْعُنَاصِرِ الْإِنْسَانِيَةِ لَدَيْهِمْ.

• أولو الألباب وقراءة كتاب الكون

• الليل والنهار والتنوُّع الزمني

• العلم لا يصادم الإيمان

• مَن هم أولو الألباب؟

• من التفكُّر إلى المسؤولية

المنهج القرآني يعتبر العقل هو الحجَّة بين الناس وبين الله، وهو الذي يُعرف به الله وحقائق العقيدة، وتُعرف به الحياة، ونتناول في حديثنا الآن الذين يعبر عنهم القرآن بـ(أُولُوا الْأَبَابِ) و(الألباب) جمع لُبٍّ، واللُبُّ هو العقل، أو ما زكي من العقل، باعتبار أنَّه يشبه اللُّبَّ من الأشياء في مقابل القشر، واللُّبُّ يُمَثِّلُ خِلاَصَةَ الْأَشْيَاءِ وَجُوهَرَهَا، باعتبار أنَّ كلَّ عناصر ذلك الشيء تتجمُّع فيه.. فقد يُراد من التعبير القرآني (أُولُوا الْأَبَابِ) أَنَّ الْعَقْلَ يُمَثِّلُ خِلاَصَةَ الْعُنَاصِرِ الْإِنْسَانِيَةِ لَدَيْهِمْ، بحيث تتحدَّد مسألة امتلاك الإنسان للعقل؛ لأنَّ الإنسان في عمق إنسانيَّته وامتدادها إنَّما يتطوَّر ويكبر من خلال تحريك عقله في كلِّ ما يتوجَّه إليه وفي كلِّ ما يعيشه في الحياة.

وفي القرآن الكريم، يحدّثنا الله سبحانه وتعالى عن (أُولُوا الْأَلْبَابِ) من خلال حركتهم الفكرية والعملية التي تُمثِّل التزامهم الفكري بالله سبحانه وانفتاحهم على الكون كلّهُ من أجل أن يستكشفوا أسرارهِ وعناصرهِ ليعرفوا الله من خلاله، ثمّ ينفّثون على الله بعد أن تنجمَّع في عقولهم معرفته، ويستهلون إليه أن يقبلهم ويقرّ بهم.. وهذا ما تحدّثت عنه سورة (آل عمران) في فصلها الأخير، وهو قوله سبحانه وتعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ) (آل عمران/ 190)، حيث يريد الله سبحانه أن يقول إنّه ينبغي على الإنسان أن ينفّث من خلال عقله على المعرفة، فلا يواجه نظام الكون باللامبالاة أو بشكل سطحي، بل يدرس القوانين التي تحكم هذا التوازن، لأنّه سبحانه وتعالى عندما خلق الكون، جعل فيه نظاماً دقيقاً لا يمكن أن يخترقه أيُّ انحراف، وقد قال تعالى: (إِنَّ زَيْدًا لَكُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) (القمر/ 49)، وقال: (قَدْ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدَرًا) (الطلاق/ 3)، وقال: (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَافُوتٍ) (الملك/ 3)، فقد جعل الله سبحانه وتعالى النظام الكوني على أساس قوانين دقيقة لا يمكن أن تنفصم أو أن تختلف حتى لو مرّت عليها ملايين السنين، كما أنّهُ سبحانه وتعالى خلق في حياة الإنسان سُدُنًا تاريخيّة، بحيث تحكم حركة الإنسان على مستوى المنهج العام لكلِّ تطوُّراته وانحداره، وانتصاراته أو هزائمه بحيث يختلف الناس في المفردات، ولكن لا يختلفون في المنهج، قال تعالى: (سُدْنَاهُ اللَّيْلَ فِي اللَّيْلِ خَلَقْنَا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّيْلِ تَبْدِيلًا) (الأحزاب/ 62).

لذلك، فإنّ الله سبحانه وتعالى يريد للإنسان أن يُحرِّك عقله ليقرأ في كتاب الكون ويلاحظ كلّ أنظمتِهِ وأسرارِهِ، وقد أكّد سبحانه على هذه المسألة فيما يمكن أن يدركه الناس من الطواهر الكونية في ما يعيشونه في حياتهم، بما يتطلّعون إليه أو بما يتقلّبون فيه، وذلك بقوله تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ). فعلى الإنسان، عندما يدرس السماوات، أن يبقى في عملية بحث دائم عن طبيعة هذه السموات من خلال تطوُّره الثقافي، وعندما أخذ الإنسان بأسباب ذلك، لاحظنا أنّ النظريات قد تنوّعت في تفسير الطواهر واكتشافها، حتى وصلت إلى الإنسان المعاصر الذي بدأ يكتشف بعض الكواكب ويحاول أن يستكمل اكتشافه للأرض في كلّ جوانبها وكلِّ مواقعها وما تختزنه من قوانين قد تنتج الزلازل والبراكين والفيضانات والعواصف، وقد تنتج البحار والأنهار والجبال.

والإنسان بعقله المتحرّك الذي يبدأ بالخيال العلمي على أساس احتمال وجود شيء ما من خلال ما تطلّع إليه، ثمّ بالبحث عنه، فإنّه يلتقي بشيء جديد وقد لا يلتقي، ولكنّ العقل يبقى في حالة مستنفرة تدفع الإنسان إلى البحث، وإذا لم يصل إلى نتيجة، فإنّه يدفعه إلى تطوير الوسائل وتطوير حركة العلم من خلال دراسة العلم الذي وصل إليه من سبقه.

الليل والنهار والتنوّع الزمني:

ثمّ يتعرّض الله سبحانه لمفردة ثانية يوجّه العقل للتفكّر في مظاهرها وأسرارها، وفي اختلاف الليل والنهار، وذلك قوله: (وَإِذَا خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)؛ فنحن نعيش الليل لنسكن فيه، ونعيش النهار لنعمل فيه، ولكنّنا نلاحظ عند تنوّع الفصول أنّ الليل ينقص تارة ليزيد النهار، وأنّه يزيد تارة أخرى لينقص النهار، ويتساويان في بعض الأوقات، فكيف ذلك؟ ولماذا هذا التنوّع؟ وكيف بقي هذا النظام يحكم الكون كلّهُ مع اختلاف الأوضاع المناخية؟ فهل يكون ذلك صدفة؟ وهل كان هذا - كما يقول البعض - كإنسان يأخذ محبرة ويلقيها على الحائط، فتخرج لوحة مبدعة؟.. والفارق أنّ هذه اللوحة لا تتكرّر، في الوقت الذي يمثّل فيه الليل والنهار اللوحة الزمنية التي تطلّع تنتج الزمن، ولكنّها تبقى في خطٍّ واحد. والقرآن الكريم عندما يركّز على هذه المفردات، فإنّما يركّز على النموذج، في حين أنّ كلّ ما في الكون هو آية تدلّ على الله، وعلى الإنسان أن يكتشفها بالدرس والتأمّل والتجربة.

العلم لا يصادم الإيمان:

ولابدّ هنا أن نشير إلى حقيقة، وهي أنّ بعض الناس يتوهّمون أنّ العلم ضدّ الإيمان، وأنّ

الإنسان كلاً ما ازداد علماً كلاً ما قلَّ إيمانه، وكلاً ما كان جاهلاً كلاً ما زاد إيمانه. ولكنَّ اِسبحانه وتعالى يُعرِّف من خلال عظمة الأسرار الكامنة في خلقه، والتي تقول - بمنطق العلم - إنَّه لا بدَّ لهذا الكون من إله حكيم قادر عليم مهيم على الأمر كلاً، وكما قال الشاعر:

فوا عجباً كيف يُعصى الإله *** أم كيف يجده الجاحدُ

وفي كلِّ شيء له آيةٌ *** تدل على أنَّهُ واحدٌ

مَنْ هم أُولوا الألباب؟

إنَّ أُولي الألباب هم الذين تشرق قلوبهم وعقولهم بنور اِ في حقيقة المحبَّة اِ وللناس، وتتحرك الحياة وتُشرق من خلال الخطَّ المستقيم الذي يبدأ من اِ وينتهي إليه، ولذلك فعندما يأخذون علم الكون وينفتحون على بعض أسرارهِ، فإنَّهم يخضعون ويخشعون لخالق الكون، وبأنَّه وحده هو الوجود الأصل، وأنَّ كلَّ ما عدا اِ بمثابة الصدى أو الظلِّ لوجوده، ولذلك فإنَّهم - (أُولُوا الألباب) - ينطلقون في عبادة اِ سبحانه في ابتهال وذكر، لأنَّ قلوبهم امتلأت عقلاً وعاطفةً بحبِّ اِ.

كما حدَّثنا سبحانه عن علاقة المحبَّة لدى المؤمنين في الفرق بين الناس وبين اِ، فقال في كتابه: (النَّاسُ مَنْ يَتَّبِعْ خِذُّ مَنْ دُونَ اللَّهِ - أَنْزَادًا يُحِبُّونَهُمْ - كَحُبِّ اللَّهِ - وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ) (البقرة/ 165)، فالمؤمنون لا يحبُّون أحداً كما يحبُّون اِ، ولا يقتربون من حبِّ أحد كما يقتربون من حبِّ اِ، بل إنَّ حبَّهم للناس يكون من خلال حبِّهم اِ، كما قال الإمام محمد الباقر (ع): "من كان ولياً اِ فهو لنا ولي، ومن كان عدوً اِ فهو لنا عدو"، حتى أنَّ اِ سبحانه وتعالى أراد للنبيِّ (ص) أن يخاطب المؤمنين: (إِنَّ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (آل عمران/ 31). فعندما تريدون أن يكون الحبُّ بينكم وبين اِ من جانبين، فإنَّ حبَّكم اِ الذي ينطلق من الإحساس بعظمته، يتمثَّل في الخطَّ الذي يريد سبحانه وتعالى لكم أن تتَّبعوه، وهو خطَّ الرسالة، وهو الذي نستحقُّ حبَّ اِ من خلاله. إذاً (أُولُوا الألباب) هم الذين استطاعوا أن يكتشفوا عظمة اِ سبحانه من خلال خلقه، هم الذين يذكرون اِ قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، وهم الذين يعيشون الحضور اِ بحيث لا يرون شيئاً إلا ويرون اِ معه، كما ورد عن أمير المؤمنين (ع) قوله: "ما رأيتُ شيئاً ورأيتُ اِ خلفه"، يعني أنَّهُ عندما يتطلَّع إلى الناس وإلى ما حوله، فإنَّه يرى أنَّ كلَّ هذا الوجود من اِ سبحانه وتعالى ومن مظاهر عظمة اِ، لأنَّه هو الذي خلق وسوَّى.

من التفكير إلى المسؤولية:

في هذه الفقرات من سورة آل عمران، بيَّـن القرآن الكريم النتائج التي حصلت لأولي الألباب من خلال حركة التفكير في كتاب الكون وانعكاساتها على علاقتهم مع اِ سبحانه. قال تعالى: (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ) (آل عمران/ 191)، فهم يتفكِّرون في خلق السماوات والأرض، فيرون الجدِّية والعمق والحكمة والهدف الذي لا بدَّ أن ينتهي إليه الإنسان في الحياة: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنْزَمًا خَلَقْنَاكُمْ عَدْتًا وَأَنْزَكُمُ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ) (المؤمنون/ 115)، لأنَّ هناك حكمة في خلق ذلك كلاً.. فيبعد أن تأمَّلوا وفكَّروا، أدركوا عظمة اِ سبحانه فخضعوا له، وتحدَّثوا معه حديثاً الفكر (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ)، فكلِّمة (سُبْحَانَكَ) تعبِّر عن التعظيم والتنزيه اِ سبحانه، فكلَّما قرَّبنا إليك - يا ربَّ - وأمنا بك - يا ربَّ - وعظَّمناك - يا ربَّ - وعبدناك - يا ربَّ.. فإنَّ كلَّ ما نريده.. (فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ). ومن هنا نعرف أنَّ المسألة العقلية التي تفتح على الجانب العقائدي ترتبط بقضية المسؤولية في إظهار العبودية اِ سبحانه والالتزام بأوامره ونواهيه، حتى يقينا اِ النار ويدخلنا الجنة.

وهكذا يبدأ (أُولُوا الألباب) بالحديث - وهم يناجون اِ سبحانه - عن أولئك الذين أنكروا اِ وجدوده، فاستحقُّوا الخزي، فأدخلهم اِ النار، وفي ذلك قمَّة الخزي للإنسان، وفوق ذلك، فإنَّه يعيش

تحت تأثير سخط الله عليه، وهو ما عبّر عنه الإمام عليّ (ع) كما ورد في دعاء (كميل): "وهذا لا يكون إلا عن غضبك وانتقامك وسخطك، وهذا ما لا تقوم له السماوات والأرض. يا سيدي، فكيف بي وأنا عبدك الذليل الحقير المسكين المستكين...". ويصوّر القرآن الكريم تلك الحالة بقوله: (رَبِّدْنَا إِرْزَاكَ مِّنْ تَدْخِيلِ النَّارِ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ) (آل عمران/ 192)، وكيف يكون للذين ظلموا أنفسهم بالشرك والكفر والبغي، فأوقعوها في الخزي والعذاب والسقوط الروحي وهلاك المصير.. كيف يكون لهم أنصار؟ والله الذي يعذب بهم وهو الذي يطردهم من رحمته.. فإذا كان الإنسان مطروداً من رحمة الله، فمن ذا الذي يؤمنه من الله؟.. "يا مَنْ يكفي من كلِّ شيء، ولا يكفي منه شيء".

ثمّ يحاول أولو الألباب التعبير عن مسألة الالتزام بخطّ الإيمان، وما هي الظروف، ومن هم الذين دفعوا بهم إلى الإيمان في كلّ تفاصيله.. (رَبِّدْنَا إِرْزَاكَ سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا) (آل عمران/ 193)، وذلك كناية عن النبيّ (ص) ومن سار في خطّ رسالته، ومن دعا إليها، ومن استجاب لها وآمن بالرسول والرسالة من خلال إيمانه بالله، لأنّ هؤلاء فكّروا بعقولهم ولم يحركوا غرائزهم التي تقودهم إلى الجمود على ما ورثوه من الأجداد، أو ما تأثّروا به من العادات والتقاليد، ويتعاطم إيمانهم في توسّل المؤمن إلى ربّه في عودته إليه بعد أن أبعدته الذنوب عنه، فيبدأ بالاستغفار والتوبة..

ولذا نحن نقف بين يديّ الله سبحانه وتعالى كمؤمنين، يلتزمون الإيمان ويتحرّسون في خطّه، فإذا كنّا قد أخطأنا يا ربّ، لأنّ النفس أمّارة بالسوء، فإنّك يا ربّ وعدتنا بالمغفرة.. (رَبِّدْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ) (آل عمران/ 193)، اجعلنا خالصين لك، وفي خطّ الأبرار الذين عیدوك وأخلصوا لك، وأنّ ننال ما وعدت به عبادك الصالحين عندما تأتي آجالنا ونرجع إليك.. (رَبِّدْنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ) من رضوانك، ومن الجنة التي وعدت بها المؤمنين، (وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ)، وقد وعدت الذين آمنوا وتابوا وعملوا الصالحات أن تقرّ بهم إليك وتطلّسهم برحمتك ولطفك.. وكانت النتيجة أن شعروا بالسعادة عندما استجبت لهم - كما ذكرت الآية الكريمة -: (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُم مِّنَ الَّذِينَ ذَكَرُوا) (آل عمران/ 195-192)، فكلّ من عمل عملاً خالصاً لله، سواء كان ذكراً أو أنثى، مهما كانت نوعية العمل وطبيعته، فإنّ الله يعطي لكلّ ثوابه (بَعَثْكُمْ مِّنْ بَعْضِ) (آل عمران/ 195)، في كلّ هذا الوجود وما يرتبط به الناس بعضهم ببعض.

ويختتم الله سبحانه وتعالى هذا الفصل بالحديث عن الذين تحمّلوا المعاناة والمأساة في إيمانهم وفي جهادهم، فقال: (فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَآخَرُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأَكْفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ) (آل عمران/ 195)، وهم الذين هاجروا من ديارهم تحت ضغط الكفر، لأنّهم قالوا ربّنا الله وتحمّلوا الأذى في سبيل الله وجاهدوا في حرب الحقّ ضدّ الباطل وقتلوا واستشهدوا...

لا قيمة للعلم بلا عمل:

ومن خلال ذلك كلّّه نخرج بنتيجة، وهي أنّ معنى أن يكون الإنسان عاقلاً، أنّ يندفع لياخذ العلم لينفتح على معرفة الله وعلى المسؤولية، وليقود العلم إلى العمل، لأنّّه لا قيمة للعلم بدون عمل، لأنّ العمل هو الثمرة للعلم، ولذلك عندما انطلق (أُولُوا الْأَلْبَابِ) في تفكيرهم وفي بحثهم، فقد انفتحوا على الله وخضعوا له وناجوه سبحانه، فأعطاهم في ذلك كلّّه (وَفِي ذَلِكَ فَلَا يَتَنَزَّاهُ فَسَّ الْمُتَنَزَّاهِينَ) (المطففين/ 26).

المصدر: كتاب العقل في القرآن الكريم